إيكولوجيا المعنى بين تهافت اللغة وتفاوت الاعتقاد
- مقاربة ابستمولوجية في مناهج الفهم وإيتيقا الكلام-

كريم محمد بن يمينة[1]

استهلال

تعتمد اللغة مستويات متفاوتة من الفهم [والتفسير] بغية توليد المعنى وتداول الخطاب، بما يخدم أحادية الاعتقاد، وينسجم مع تأويلات مذعنة لكل مرجعية أو مذهبية إلى أقصى إمكان من المنتهى [المشتهى].. فبين اتساع الدلالات وتنوع العلامات وتباين المقامات.. يكتسب المعنى استضافة [مضاعفة] لا حد لها ولا قيد ولا قد.. فالتأويل [اللامحدود] يتصيد منهجه من ممارسة [استعمال] الاختلاف [الخلاف] قصد المحافظة على الاستخلاف [الاستغفال].. مما يستدعي تجاوز كل وظيفة/فيزياء من الأقانيم [ترجمة من أجل الفهم].. إلى لعبة/كيمياء من المفاهيم [ترجمة من أجل الاستفادة].. إلى بيئة/منطق من التوافق اللغوي [ترجمة من أجل التعايش].. نحو فاعلية تواصلية بين النص ومقاصده.. بلا مقدمات استشرافية.. ولا توقعات استيباقية.. بين غراماتولوجيا الجملة وبلاغة الفقرة.. تتسلل الغفوة [الغفلة] من ثنايا اليوتوبيا.. وبقايا الميتافيزيقا المفعمة بالضد.

يتشكل المعنى فضاء رحيبا من الافتراض، والإفضاء والفضح.. مناسبة لتجريب الإصغاء إلى أقصى حدود التلقين واليقين.. مما يقتضي أنسنة الفعل المتعالي، وتصعيد الصمت أمام عسر الحقيقة، وكف الصراع مع الفكر العصي الذي لا يقبل الحجاجية ولا يلتزم بأية منهاجية.. عذر التأويل زهد اللغة في تطويق [تطوير] الفهم.. وتحرير الإنسان من احتكار الدلالة إلى استيعاب المعنى.. يستلزم هذا استدعاء [استحضار] ألعاب المعنى للودفيغ فتجنشتين، وأفعال الكلام لجون أوستين، وواقعية المعنى لجون سيرل.. وسلطة الاستعارة لدى أرنست كاسيرر، وحدود الإنتاج عند أمبرتو إيكو.. فيرتقي المعنى من

1- أستاذ مساعد شعبة الفلسفة جامعة سعيدة الجزائر

السطحي المبتذل، والحرفي المستهلك، والآلي المبرمج.. نحو إيكولوجيا آمنة للمعنى.. تتخذ من التأويل ابستيما لفك شفرات العبارة [الأركيولوجيا]، ومن الترجمان سلطانا لتتبع آثار العمارة [الجينيالوجيا].. فبين أدبية النص في بلاغته، وسردية الخطاب في إبلاغيته.. واقتصار المعنى بما يفيد المبنى.. يستفيق التاريخي من الاعتقادي.. يدعو إلى "الاعتقاد باللغة لا في اللغة"، واقتصاد الدلالة بما ينسجم مع طبيعة العبارة.. بلا إخلال بالمقصد ولا إحلال للمعتقد.. فيتجلى المعنى أفهوما لتدبير [≠ تدمير] المنحى الهيرمنوطيقي.. وصولا إلى صرامة الاستفهامات [المنعطفات] الآتية: - هل يشكل الاعتقاد سلطة في كل ممارسةٍ هيرمينوطيقيةٍ لأدلجة وإفساد اليقين [الإيمان]؟ - هل يمكن اقتراح منظومة ميتالغوية للحد من عنف التأويل وحصر الترجمة [الواصفة] في إمكان الفائدة؟ - كيف نؤسس لـ" هيرمينوطيقا مسالمة" تجمع بين أناسة الفعل الترجمي وبين ثقافة الوعي الإنسي؟ - هل تقدم نظرية "إيكولوجيا المعنى" بديلا سيميائيا لكل تأويلية ضالة وترجمة مربكة [خائنة]؟

الكلمات المفتاحية = اللغة-الاعتقاد-المعنى-الإيكولوجيا-التأويل–الترجمة–الفهم–الخبرة–الوظيفة–الميتاوية.

أولا: معنى المعنى.. التصور والمطابقة [بين فيزياء اللفظ وكيمياء الدلالة]:

يتخذ "المعنى" مفاهيم تقوم على مدلولات الوضوح والبيان والمعرفة والمطابقة والمساواة.. مثلما قد يفيد [اللامعنى] حين يؤانس الغموض وينتهج مفارقة المبنى.. أو وصفا مغايرا لتصورات حاضرة في ذهن المتلقي.. فبين مقاصد المعنى في تأكيد الحقيقة أو الحق [أو هما معا] يؤول المجاز إلى استعارة [استدارة] تقتضي صدارة دلالة ما على حساب أخرى، كما يشمل التصور الذهني المرتبط بالكلمة من حيث التضمن أو اللزوم بتحصيل معنى ضمني، نتوصل من خلاله إلى أجزاء [تصورات] متفاوتة من الفهم.. بينما يحاكي التصور المرتبط بالكلمة على سبيل الصوت للمعنى دلالة طبيعية.. نحو إمكان تام وكامل لمدلول الكلمة حينما يطابق معناها كل تصوراتها [الكلية=الشمولية].. ويكتسب الرجل صاحب الصفات الحميدة والمحمودة [المباني] حسن المعاني، أما علم المعاني فيراد به: قسم من أقسامِ البلاغةِ، يهتم بطبيعةِ الكلامِ والإيجاز والإطناب والمساواة. بينما تطلق حروف المعاني على أدوات الجر والعطف والاستفهام. .. والتي يكون لها معنى بانتظامها في

جملةٍ»[1]، فبين تصور المعنى ومطابقته لدلالة اللفظ، تحذو اللغة طرائق [تصنيفات] متعددة من فنون وعلوم ومجاورة لتجاوز الشرح [الفهم القاعدي] في مرحلته الأولى [الأولية]، وحتى وإن اعتبرنا هذا البدء ضرورة بنائية لكل تأويلية أو ترجمة قصد إيجاد معابر تفسيرية من اللفظ إلى المعنى فإن الأمر يتطلب وضع ضوابط [أسس] وفق مناهج لغوية وأخرى فلسفية يقتضيها التخصص.. حتى لا يخضع المعنى لاعتقادات ذواتية وشخصانية لا يسعها اللفظ ولا تقتضيها الدلالة.. ويتساوى القصد مع المعنى في اللغة الدارجة، فـ «.. لا يفرق أبدا بين المعنى والدلالة والقيمة والفهم.. كما لا يفرق بين تعابير: "مما يعني.. مما يقصد بكذا"»[2]، غير أن الدارج لا يرتقي إلى المنظومة اللغوية التي تقوم على الانتقاء في الألفاظ والتفضيل في مستويات الفهم والتعبير، وتنتهج أساليب نحوية وصرفية وقوالب بلاغية وبيانية.. فيغدو الكلام نظاما يتفاوض بدليل ويذعن بحجة.

يشار في تعيين "الفهم" وبناء "التسمية" إلى مقاربة اللفظ باليدن مقابل المعنى الذي هو أقرب إلى عرفانية الروح، فلو أعطي الإنسان الأسماء بلا معان لكان «.. كمن وهب شيئا جامدا لا حركة له وشيئا لا حِس فيه وشيئا لا منفعة عنده»[3]، وعند تضافر اللفظ مع المعنى ينشأ الكلام في قصدية تستدعي إشراك العقل والوجدان في إنتاج الفائدة، إذ «.. أن المعنى هو قصد القلب بالكلام إلى المراد»[4]، فيرتبط المعنى بالكلام من حيث تعيين اللفظ [البدن] في ترميزة أولى وسابقة [أسبقية] للمعنى [الروح] نحو أنطولوجية لغوية تجعل الروح تابعة للبدن وتحل فيه، ثم تغادره نحو إطار وجودي آخر، فثنائية البدن/الروح لا تشكل مطابقة ما باعتبار الروح أسمى والبدن أدنى، يلحقه الفناء والزوال حين يهجره الاستعمال ويغادره إلى تسميات لفظية أخرى تستجيب لسلطان المعنى، في قصدية وجدانية تمارس اعتقادا [إسقاطا] في استدراج الكلام نحو أغراض ديماغوجية [نفسية] وأيديولوجية [تاريخانية].. بغية استدراج المتلقي إلى أهداف

---

1 - أبو العزم عبد الغني (د)، معجم الغني، مؤسسة الغني للنشر، الرباط، المغرب، ط1، 2013، لفظة "المعنى".

2 - لالاند أندريه، موسوعة لالاند الفلسفية، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، تع: خليل أحمد خليل، ط2، 2001، ص1274.

3 - دغيم سميح (د)، موسوعة مصطلحات علم الكلام الإسلامي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ج2 [ق-ي]، ط1، 1998، لفظة "معنى"، ص1277.

4 - نفسه.

حاضرة.. وتوجيهه وتنبيهه بمستويات من الخطابية والسردية بعيدا عن كل حرية وأخلاقية وفنية وعرفانية.

ينتقل المعنى من جمالية اللغة إلى سيميائية الفن في تهافت (l'incohérence) صوفي وتفاوت (Disproportion) عرفاني.. دون تقيد بتفسيرية ما.. فالزواج (أمثولة) هذا الارتباط الإنساني [الفطري+الديني+القانوني+الاجتماعي+النفسي. ..] هو مجرد ألفاظ يصدرها الزوجان لبناء اعتقاد الأسرة في شرعية مستمدة من النصوص الدينية وكذا سيكولوجية معلنة من قبل جماعات إنسانية.. أو في تطور لتصبح كتابة تحمل تلك الألفاظ الكلامية. .. وهذا ما يظهر قوة اللغة مجاراة الممارسات والتطبيقات في سيادة الاعتقاد وتأسيس العلاقات بين الناس..وينطبق هذا أيضا في العقود والحقوق.

ثانيا: ابستيمية المعنى. .. من دلالة الكلام إلى منظومة الاعتقاد [الترميز بامتياز]:

تجتمع مفردات "المغزى" و"التبليغ" و"التواصل" في توليفة الدلالة (Signification) ليتضح سؤال المعنى في مقولة «.. "ما تعنيه"، ما تبلغه كلمة، ما توصله إلى الفكر عبارة أو أية علامة أخرى تلعب دورا مماثلا»[1]، فتنتج منظومات من الفهم والتفاهم قصد توليد معنى الكلمة أو العبارة الذي هو «..مضمون نفسي معقد جدا، هو موقف وحركة فكريان يتضمنان خيلاتٍ فردية وعينية، واتجاهات تنضاف إليها الإرادة لدى المتكلم، و"الشعور بالفهم" لدى السامع، أي تنضاف إليها القدرة على ذكر خيلاتٍ أو علاماتٍ أخرى مرتبطة بهذا الشعور بروابط محددة، ومعرفة ما يجب القيام به..»[2]، فارتباط الشعور [النفسي] بالإبستيمي [المعرفي] في ولادة "المعنى" يؤكد ذلك التداخل بين الاعتقادي واللساني في عمليات التفكير الإنساني. .. فإذا كانت العلامة إمكان المعنى في إنتاجية المفهوم.. بما تتيحه الإشارة من مطابقات أو مفارقات بين الرموز والدوال [المدلولات].. فإن «.. القيمة الموضوعية لعلامة أو لإشارة بوصفها مثبتة في التداول أو في مواضعة علمية، في إمكان المعنى المفهوم على هذا النحو (فكل مفهوم معنى، وليس كل معنى مفهوم)، أن يتطابق إما بتعرف (دقيق نسبيا) وإما مع حدس بسيط، بخصوص المفاهيم

1 - لالاند أندريه، موسوعة لالاند الفلسفية، مرجع سابق، ص1272.

2 - نفسه، ص1273.

التي يمتنع تفكيكها بالتحليل، ويمتنع تحديدها بتعريف مباشر»[1]، فبين الدلالة (Sens) والعلامة (Signe).. تنشأ الوظيفة السيميائية من توسم العلامة باعتبارها «.. وحدة من مشروع [خطة] العملية السيميائية، بمعنى تلك العلاقات التبادلية أو الضمنية [التضامينة] التي تحدث بين معظم الأساليب التعبيرية.. لإيصال المحتويات الدلالية أثناء أداء [فعل] اللغة»[2]، ويطلق لفظ الدلالة (Sens) على «.. معان متعددة، يعين في علم النفس وظيفة نفسية-فيسيولوجية التي لها علاقة بالدوافع الخاصة»[3]، أما العلامة (Signe) فهي الوظيفة الحسية (الإشارة) وتعني «إدراك حسي يحدد معلومة تتعلق بشيء غير ملاحظة مباشرة.. مثل: صفارة الإنذار علامة على الحريق.. / إشارة [حركة] أو موقف ينقل رغبة أو أمر (القيام بإشارة بالمجيء) أو بشكل عام حالة مؤثرة (إشارة ودية)../ صلة بين معنى (signification) وعناصر الاتصال (صوت، رسم).. مثل: الصورة أو الاسم مقابلة بالشيء المعين.. يمكننا تمييز العلامات الطبيعية (بالاعتماد على قوانين الطبيعة: الدخان علامة على النار).. العلامات التقليدية والمألوفة»[4]، فيخضع المعنى لكل منظومة نطقية [كلام، قول، خطاب..]، وكذا منطقية [تفكير، فهم، معرفة، .] ونفسية [طبع، ميزاج، اعتقاد، .].. مما يجعل الإشارات والعلامات فاتحة لدلالات يصعب حصرها.. ويتعذر تجاوزها.

يؤكد فريدريك لودفيج جوتلوب فريجه Friedrich Ludwig Gottlob Frege (1848-1925) أن المعنى «.. لا يمكن أن يقوم على الدلالة على شيء أو موضوع معين، إذ من الممكن وجود أمثلة على رموز لغوية تدور حول المدلول أو الماصدق ذاته بدون أن تكون مترادفة في المعنى، وبتعبير أعم، فإن أي شيء يمكن أن ندل عليه بتعبيرات مختلفة غير مترادفة، وليست متفقة في المعنى»[5]، وما يمثله فريجه من توجه منطقي [الوضعية المنطقية] في الفلسفة التحليلية، لترتكز فلسفة المعنى عنده على المبادئ الرياضية والمنطق الرمزي،

---

1 - نفسه.

2 - Algirdas Julien Greimas , Joseph Courtés, Sémiotique Dictionnaire Raisonné de la théorie du langage", Hachette, Paris, France, 1979, p349.

3 - Gérard Durozoi, André Roussel, Dictionnaire de Philosophie, Nathan, Paris, France, 1997, p353.

4 - Ibid.

5 - نادية السيد عبد القادر حسين، فلسفة اللغة من منظور منطقي معاصر "تراث الفريجة"، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، مصر، دط، 2015، ص245.

والصناعة الغراماتولوجية [النحوية] المشبعة بالقواعد الكلامية التي تسبق الفهم وتحد من الإفهامية (الهلامية)، فتقدم ما يصعب القبض على المعنى في دلائلية اللفظ مما يستدعي إيجاد آلية لتجاوز المعنى لفائدة الشيئية في تخومها اللفظية، فاللفظ ما دل على معنى.. وليس للمعنى دلالة في لفظ بعينه.

يربط أرنست كاسيرر Ernst Cassirer (1874-1945) بين "المنطوق" و"المقدس" من خلال أسطرة المعنى، فـ «.. أكثر المنطوقات اللفظية بدائية تتطلب تحويل تجربة معرفية أو انفعالية معينة إلى صوت، أي تحويلها إلى وسط غريب عن التجربة، بل منفصل عنها تماما، مثلما يمكن أن يظهر أبسط الأشكال الأسطورية فقط بفضل تحول ما ينقل انطباعا معينا من عالم الاعتيادي واليومي والمدنس، ويرتقي به إلى مستوى "المقدس"، أي إلى عالم "الدلالة" الأسطورية-الدينية. ولا ينطوي هذا على مجرد نقل، بل هو في الحقيقة تحويل إلى جنس آخر (...)، فهو ليس مجرد نقلة من مقولة إلى أخرى، بل هو في الحقيقة خلق للمقولة نفسها»[1]...وبذلك يؤول المعنى إلى أبعد دلالة ممكنة [وغير ممكنة].. في الآن نفسه.. فكل محاولة لتقديس المقولات هي تحويل المعنى إلى قصد آخر.. لما يتيحه التصور من مطابقة وكذا مقاربة ومغالبة بين اللفظ والدلالة.

يعتبر جون لانجسو أوستين John Langshaw Austin (1911-1960) الإجراء في أفعال الكلام ضربا من إنجاز المعنى إذ أن «.. أهم نقطة هنا ينبغي إثارتها إزاء المعجم والنحو هي مسألة تحسين الصوت وإيقاعه وتنغيمه.. غير أن فعل الكلام، مثله في ذلك مثل الفعل الصوتي، يمكن أن يحاكي وأن يقلد كما يمكن أن يتجدد حصوله (ويدخل في ذلك تجميل الصوت وتنغيمه، والغمز بالعين وحركات الجسم وإشارته. ..) فأحدنا لا يمكنه فقط أن يقلد الإثبات في هذه الجملة المقتبسة (لها شعر جميل) بل وأيضا يمكنه أن يتفنن في تنويع إخراج نبرات الصوت، كأن يقول (لها ما أجمل شعرك) بإطالة لفظ الشعر، والتشديد عليه (وهز كتفه دلالة على الاستحسان)»[2]، إذ كيف ننجز الكلام

1 - كاسيرر أرنست، اللغة والأسطورة، ترجمة: الغانمي سعيد، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث -كلمة، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2009، ص157.

2 - أوستين جون لانكشو، نظرية أفعال الكلام العامة "كيف ننجز الأشياء بالكلام"، ترجمة: عبد القادر قينيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2008، ص125-126.

بالكلام؟.. وكيف نترجم الصوت والسلوك ومستويات القول والخطابية والممارسات الكلامية.. والتطبيقات النصية؟.. فحين يتعلق المعنى بالإجراء تصبح الإحالة مستعسرة بل ومستحيلة.. ويغدو الاعتقاد نظرا وتقليدا لغويا لا يرتقي إلى مراتب الإيمان واليقين والمعرفة، وقد لا يتعلق الأمر بالمتلقي بقدم ما يرتبط بالمتكلم في جنسه وسنه وبيئته وطبعة وميزاجه.. فالنص حين يغير بيئته يصبح نصا جديدا.. وبعيدا عن الأصل.. مما يستدعي مطالبة ومصاحبة ومرافقة المتلقي لمعرفة مدى فهمه ووعيه للمعنى بعد كل حوارية وتواصلية.

يستند المعنى في المعرفة العلمية على الرمزي الأحادي وصولا إلى الإستنتاجي العام [المفاهيمي]، بخلاف المعنى في المعرفة الإنسانية الذي يبدأ عاما [الماهوي=الاعتقادي] حتى يبلغ في استقرائية متعبة المفهوم الإنجازي الدلائلي [الوظائفي=التواصلي]، فحسب هانس جورج غادامير Hans-Georg Gadamer (1900-2002) أننا «.. عندما نتحدث عن الفلسفة، فلا نفكر سوى في المفاهيم التي تتبلور في تجربة الفكر المتوجه نحو الكلام، صحيح أن المفاهيم تختار وتحدد في المعرفة العلمية كعلامات أو رموز، فلفهم ذلك دلالة تواصلية بحتة بحيث تعين التجربة بطريقة أحادية المعنى وتصبح بذلك مراقبة. يسمح هنا التحقيق والترميز أحادي المعنى بتكرار التجربة. تجد خدعة هذه الرمزية المفهومة الخاصة بالعلوم تعبيرها الأقصى حيث يمتد هذا الأسلوب إلى المعطيات المعقدة والواقعية للتجربة التي لا يمكنها أن تكون منتجة ومكررة مثلما جرى هذا في تجربة العلوم الطبيعية، حالة العلوم الاجتماعية، أين تسود لغة عالمية، هي التي تنطبق على هذه الوضعية.. لكن عندما يتعلق الأمر بالفلسفة فإن رغبة التحديات تخون بالأحرى الهاوي. ينبغي للفلسفة أن تنصت إلى الحكمة القديمة التي تتكلم عبر اللغة الحية»[1]، وإذا كانت التأويلية في شقها الإيجابي [Herméneutiques] تعصم من سوء الفهم (la mécomphrénsion)، فإنها لا تضمن لنا الفهم السليم (Le correct) والصحيح (Le juste) والدقيق (L'exact).. ليغدو "اللامعنى" في حد ذاته معنى آخر.. مناسبة للاختلاف..

1 - غادامير هانس غيورغ، فلسفة التأويل "الأصول، المبادئ، الأهداف"، ترجمة: محمد شوقي الزين (د)، الدار العربية للعلوم، منشورات اختلاف، بيروت، لبنان، ط2، 2006، ص2002-203.

والاتفاق معا.. للتنوع والتماهي، بأن يكون الفهم داخل التاريخ والتأويل بمعزل عن التاريخانية.

يختلف التأويل الحرفي [الاختزالي].. عن التأويل الاحترافي [الاختلاقي] في تقمص المعنى [الاختلافي].. وإرادة الحقيقة، فنحن «.. نحاول غالبا، إقامة تمييز واضح، بين النصوص التي تتعامل مع الوقائع وتدعي بالتالي أنها صحيحة حرفيا، وبين النصوص الخيالية أو "المختلقة". المشكلة هي أن التمييز الدقيق بين الحقيقة الحرفية والحقيقة الأدبية أمر في غاية الصعوبة. .. وترتبط في التفسير الإنجيلي بالفهم النحوي والظاهر لـ "حرفية" النص الديني، إلا أن تحديد علاقة "المعنى الحرفي" بالمعنى الحقيقي أمر في غاية الصعوبة، إذ غالبا ما يرتبط المعنى الحرفي بالمعنى التاريخي»[1]، فارتباط الحرفي [الحرفي] بالحروف من حيث إنتاج المعنى يؤدي إلى سذاجة الوعي.. مقابل الاحترافي [التحريفي=التخريفي] الذي يكون بمثابة اختراق للحروف.. وقد لا يعاب على المتابعة الحرفية للفهم رغم بشاعتها، والقراءة الاحترافية رغم جماليتها.. فالحقيقة لا ترتبط بالتأويل.. إنما بالاعتقاد الذي يحدد هذه الحقيقة ويرافع لأجلها في غياب تام لكل نقدية تعيد المعنى إلى حصنه، وتوفر آليات [تقنيات] وأدبيات [أخلاقيات] لتجاوز التارخانية بإرادة وشجاعة وذكاء.

تسبق المعرفة كل نشاط مفاهيمي يرتبط بالتأويل.. فلا يمكن للهيرمنيوطيقا أن تنشئ فعلا دلاليا إلا حين تستعين بالفهم. .. وكلما اتسعت هذه المعارف وتنوعت هذه الأدوات والتقنيات أصبح التأويل فنا ذكيا، ولعبة محكمة، وخبرة جمالية، وقيمة أخلاقية.. بعيدا عن الجهد والتكلف والصناعة.. فيغادر المعنى الحرفة [≠الخرافة] إلى الاحترافية [≠الإحتراقية].. وبين فهم المعرفة وتأويل الفهم يحظى الاعتقاد بسلطة المتابعة والمرافقة و«.. لكي "يفهم" Understand المرء ينبغي أن "يفهم سلفا" Foreunderstand، أن يكون لديه موقف، استباق، سياقية، هذا هو ما يعرف بـ "دائرة الهرمنيوطيقا". فالمرء لا يسعه أن يعرف إلا ما هو مؤهل لمعرفته. يمكن أن نعد دائرة الهرمنيوطيقا عملية تضييق فطري وتعمية ذاتية لا تسمح للمرء بأن يعرف إلا ما هو مؤهل لمعرفته، وبحسب النظرية التأويلية الفينومينولوجية فإن دائرة الهرمنيوطيقا ليس مغلقة بل مفتوحة؛

1 - دايفيد جاسبر، مقدمة في الهرمينوطيقا، ترجمة: وجيه قانصو، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم-ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 2007، ص26.

وذلك بفضل الطبيعة الرمزية والتأملية الذاتية لوجودنا»[1]، فالتأويل سجين المعرفة.. فبقدر ما نعرف بقدر ما نؤول.. وبقدر ما نعتقد بقدر ما نريد.. لأننا لا نستطيع أن نصل إلى معنى ما في غياب معرفة نستدل بها على هذا المعنى.

يدعو إدغار موران Edgar Morin (1921-) إلى اعتماد ابستمولوجية الخطأ.. في رصد الاعتقادات بلا خوف ولا استلاب إذ «.. ليس علينا أن نحكم على النظريات والفلسفيات والإيديولوجيات باعتبارها أخطاء وحقائق فقط في ترجمتها للواقع، ولا يجب تصورها كنتاج للثقافة والطبقة والمجتمع فقط، إنها كائنات نولوجية أيضا، تتغذى من مادة ذهنية وثقافية، ويستطيع بعضها، المشحون بمادة أسطورية/دينية قوية، أن يطور قوة هائلة للإخضاع والامتلاك»[2]، فمثلما تقتضي الحيطة من الاعتقادات أثناء بناء المعنى، فإنه لا خوف [حرج] من التعامل مع الخطاب الديني.. لكن داخل بيئته، وبمصطلحاته ومصادره وأصوله ومقاصده.. كما يمكن تدعيم التحليل بعلوم وفنون وأساليب خارج إطار الاعتقاد.. باعتبارها أدوات مساعدة [حاجية].. بحثا عن ضفاف مجددة وأفق متنوعة بلا صدامية ولا عراكية. .. يراد بها «.. التنقيب في اللغة وإزاحة ثقلها عن المفكر والوصول إلى الطبقات السفلى للثقافة الرمزية لا يتم إلا بإسقاط مستويات لغوية رمزية متعددة على ذاتها، وذلك يتطلب إلغاء الاعتقاد، والإيمان، والذكريات وإيقاف الخيال وإزالة كل أثر لغوي ظاهر وباطن. وهذا عمل صعب، لأنه يصعب على الفرد السوي أن يلغي ذاكرته ويوقف خياله بسهولة»[3]، فلا يمكن تجاوز التراكم المعرفي تحت سلطة اللغوي.. فالفلسفة ليست معرفة في حد ذاتها، إنما هي فهم هذه المعرفة كما هي في ذاتها.

---

1 - عادل مصطفى (د)، فهم الفهم "مدخل إلى الهرمنيوطيقا" -نظرية التأويل من أفلاطون إلى جادامر-، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2007، ص17.

2 - إدغار موران، المنهج: معرفة المعرفة-الأفكار، ترجمة: يوسف تيبس (د)، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2013، ص382.

3 - سامي أدهم (د)، فلسفة اللغة "تفكيك العقلي اللغوي" بحث ابستمولوجي أنطولوجي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1993، ص33.

ثالثا: فلسفة المعنى.. دلائل التفسير وأصول التأويل [بين مغزى الظاهر واعتقاد الباطن]:

يحيل لفظ "المعنى" (Meaning, Sens, Signification) إلى «الصورة الذهنية للفظ»[1].. بما يفيد المعزى، والدلالة، والتعبير، والمراد، وهوية النص.. وتطرح هذه المستويات اللغوية وبحدة مشكلة نجاعة التعاريف والمفاهيم والعلاقات بين تتحكم في صياغة وصناعة المباني، والتي تظهر خضوع المعنى لتأويلات متفاوتة ولاعتقادات ألسنية فيلولوجية تنم عن مدى التضليل الاعتقادي باسم العقل واللغة والحقيقة، فقد أورد "معجم مصطلحات علم النفس" مفهوما نسقيا للتأويل إذ يعتبر بأنه «.. استخلاص المعنى الكامن في أقوال وتصرفات الشخص بواسطة الاستقصاء التحليلي. يوضح التأويل أساليب الصراع الدفاعي ويستهدف في نهاية المطاف الرغبة التي تتفصح في كل انتاجات اللاوعي.. أما في العلاج، فالتأويل هو إعلام للشخص يرمي إلى جعله يقف على هذا المعنى الكامن، تبعا للقواعد التي تمليها إدارة العلاج وتطوره»[2]. هذا التعلق بين النفساني والفكروي يؤكد على صعوبة [استحالة] الفصل بين فعل التأويل وفاعلية المؤول، فيغدو النص متاعا [مرتعا] ومشاعا [شيوعا] لكل نشاط تأويلي.. يمارسه الناص الواصف بكل ما يتوافر لديه من نفاذ (عنف) الرأي، ونفوذ (أصول) اللغة، فهو بذلك لا يدع نافذة بين الكلمات حتى يقحم فيها ما طاب [لذة] له من إرادة الاعتقاد.

يخضع التفكير المنظومي للغة إلى عمليات التركيب والتفكيك في مراحل التأليف والتحليل، ويتعذر الفصل بين هذه المستويات في إنتاجية التأويل.. حتى وإن بدت لنا مختلفة من حيث المفاهيم والمناهج والتطبيقات، إذ لا يخلو المعنى من استدعاء علاقات اللغة بالفكر أثناء الفعل التأويلي أو الجهد الترجمي.. في حضور التاريخانية، فقد أشار أمبرتو إيكو Umberto Eco (1932-) في محاضراته حول "التأويل والتاريخ" إلى مجموعة من

---

1 - محمد رواس قلعة جي (د)، حامد صادق قنيبي (د)، معجم لغة الفقهاء، دار النفائس، بيروت، لبنان، ط1، 1985، ص442.

2 - لابلانش جان وبونتاليس.ج.ب، معجم مصطلحات التحليل النفسي، تر: حجازي مصطفى (د)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، الجزائر، ط1، 1985، ص146.

الأفكار القائمة على المقاربة الهرمسية[*] للنصوص، فـ«.. – النص كون مفتوح (open-end) بإمكان المؤول أن يكتشف داخله سلسلة من الروابط اللانهائية – إن اللغة عاجزة عن الإمساك بدلالة وحيدة ومعطاة بشكل سابق. إن مهمة اللغة، على العكس من ذلك، لا تتجاوز حدود إمكانية الحديث عن تطابق للمتناقضات – إن اللغة تعكس لا تلاؤم الفكر. إن وجودنا في الكون عاجز عن الكشف عن دلالة متعالية – إن كل نص يدعي إثبات شيء ما هو كون مجهض، أي نتاج كائن يشكو من اختلال ذهني (وهو يريد أن يقول "كذا" و"كذا"، فإنه ينتج سلسلة لا متناهية من الإحالات مثل "هذا" ليس "هذا"). – إن الغنوصية[*] النصية المعاصرة متسامحة جدا. فبإمكان أي كان أن يكون كائنا كليا، شريطة أن تكون لديه الرغبة في أن يحل قصدية القارئ محل قصدية الكاتب التي تستعصي على الضبط، لحظتها سيصل إلى الحقيقة، حقيقة أن الكاتب لا يعرف ما يقوله، فاللغة هي التي تتحدث نيابة عنه»[1]، وبين –إيكو- أن هذه الأفكار ليست مقتصرة على الهرمسية القديمة، بل هي حاضرة في الكثير من المقاربات المعاصرة.. إذ يختلف جدل الدين عن جدلية الفلسفة في تأويل النصوص.. فتلتزم القراءة الدينية بتوظيف الاعتقاد قبل الاحتكام إلى فلسفة النص وما تحمله من إمكانات قد تتناقض مع غنوصية الفهم.

تستجيب اللغة فلسفيا لثنائية "التأليف والتحليل".. وهي تأويلية في كل الحالات، عند الكتابة.. وأثناء القراءة.. وحتى الفهم.. والتحليلية إنتاج للمعنى في أصدق التصورات وأكذبها، ويفاضل إدوارد سابير Edward Sapir (1884-1939) بين الأمرين، إذ يمكن للغة أن «.. تكون "تحليلية" من جهة معينة و"تأليفية" من جهة معينة أخرى، وأعتقد أن أهمية تلك المصطلحات تكمن بالأساس في تحديد بعض الاتجاهات أكثر مما تكمن في وضع أصول مطلقة. وكثيرا ما يفيدنا هذا أن اللغة قد انتقلت أكثر فأكثر إلى التحليلية في

---

* - الهرمسية [الدينية؛الغموض] Hermsi: فلسفة دينية [مذهب فلسفي ديني غيبي]، تعد وسطا بين العالم المادي والغيبي، وتعني الفكر الغامض (Hermétisme).

* - الغنوصية [العرفانية؛العارفية] Gnose: نزعة فكرية [مذهب فلسفي ديني صوفي]، تمزج الفلسفة بالدين، قائمة على المعرفة الحدسية العاطفية للوصول إلى معرفة الله (ظهرت في القرنين الأولين للميلاد).

1 - أمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ترجمة وتقديم: سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2004، ص42.

مجرى تاريخها الخاص وأنها تبدي علامات دالة على تبلورها متأتية عن قاعدة تحليلية بسيطة مؤدية إلى شكل تأليفي عال»[1]، وتعتمد العملية التأويلية على الفهم المسبق للمعنى في تجاوز شبه تام للترميزات الماثلة أمام الحواس، فـ«.. المرء لا يمكنه أن يعرف العالم إلا من خلال الفهم المسبق، غير أن العالم من حيث هو عيني ويتجاوز ترميزنا له؛ يحملنا على مراجعة أفهامنا المسبقة؛ والخبرة التأويلية. اللقاء بالآخر. الإصغاء إلى "صوت الآخر". انصهار الآفاق، ذلك الانصهار السياقي التاريخي، رغم أنه انصهار لغوي، هو ما يتيح لنا الهروب من سجن اللغة»[2]، فبقدر ما تمنحه اللغة من إمكانات "إرادة المعنى" بقدر ما تحرمنا من التبصر بعمق تحت وطأة السابق [الاعتقاد] الذي يتحكم في "الممارسة النصية".. فأمام هذه التأويلية المفضوحة [المفضلة] بالأفكار الجاهزة (السابقة) تصبح "حقيقة المعنى" استقلالية مؤجلة وعدمية ترافق مراحل البحث اللغوي والتفكير الفلسفي والتحليل النقدي.

تتخذ الكلمات تصورا جاهزا منذ الوهلة الأولى [سماعا أو قراءة]، قبل توظيفها داخل السياق [التركيب]، مما يجعل المعنى الكلي [العام، الشمولي، المطلق] عرضة لسلطة اللفظ ودلالته، فيغيب التفكير في المعنى لصالح الفكرة التي تقود [توجه] داخل المتلقي [المرسل إليه] من جهة ولدى القارئ [المرسل] فيتحول التأويل إلى رسالة تستعين بشفرات معينة ذات منابع إعتقادية وعاطفية.. إذ يتضح أن «.. الأبعاد العاطفية للكلمات لا جدوى لها في العلوم فالفيلسوف سيجد إن هو أراد إدراك الحقيقة لا الإقناع فحسب أن تلك الكلمات من أشد أعدائه. إلا أن الإنسان قلما يهم بالعلم المجرد والتفكير الصحيح، وغالبا ما تتأثر أعماله الفكرية بحرارة تيار العواطف، فيتخذ من تلك الأبعاد الشعورية للكلمات بواعث حسنة تساعد على الفكرة المرجوة، ولتلك الكلمات طبعا قيمة كبرى عند الأديب، ويجدر أن نلاحظ إلى جانب ذلك أنها قد تمثل للأديب خطرا من الأخطار، فالكلمة التي ترسخت شحنتها نهائيا تتحول إلى جزء خال من المعنى أو إلى كلمة "جاهزة" إلا أن الأديب يقاوم من حين إلى آخر ذلك الشعور ليجعل الكلمة دالة على ما

1 - سابير إدوارد، اللغة "مقدمة في دراسة الكلام"، ترجمة وتقديم: المنصف عاشور، الدار العربية للكتاب، تونس، ط2، 1997، ج2، ص14-15.

2 - عادل مصطفى (د)، فهم الفهم "مدخل إلى الهرمنيوطيقا" -نظرية التأويل من أفلاطون إلى جادامر-، مرجع سابق، ص18.

يجب أن تدل عليه عارية أو متصورة باتصالها في هذا الشأن بقوة الخلق الكامنة في نظام خاص من المفاهيم أو الصور»[1]، فالفصل بين الحقيقة والإقناع يحدد وبكثير من الموضوعية أبعاد المعنى وأهداف التفسير التي لا تنفصل عن أنظمة المعتقدات والممارسات، فبيئة اللغة التي ينتمي «... مستعملوها إلى جنس ما أو عدد من الأجناس أو إلى مجموعة متميزة من غيرها من المجموعات بعدد من الخصائص الفيزيائية، ثم إنه لا وجود للغة خارج الثقافة أي خارج أنظمة الممارسات والمعتقدات الاجتماعية الموروثة التي تحدد نسيج حياتنا»[2]، إن التعامل مع الكلمات في مواضعات التفسير أو موضوعات التأويل يتطلب الحذر والحيطة من أنظمة الاعتقادات.. فالنص نسيج متداخل ومتشابك من الأفكار غير البريئة ولا الآمنة، إذ يعد كل تقديم أو تأخير أو حذف أو إضافة لوحدة صوتية أو بنائية بمثابة أزمة جديدة في البيئة اللغوية، بكل ما تحمله من حمولة واحتمالية، فحين يغيب الناص عن العملية التأويلية أو عن فعل الترجمة يصبح المعنى قطيعة مع كل صواب، ومفاضلة للرأي على حساب كل جهود الكتابة، وحتى في حضور كل أطراف الممارسة النصية من تفكير وكتابة وقراءة وفهم وتحليل. .. فلن يستقيم [يسلم] المعنى أمام وفرة المرادفات، وكثافة الدلالات، وحالات الإفهام التي تختلف بتنوع المتلقي، إذ أن الاعتقاد هو الذي يتربص بالمعنى ويمده بالفاعلية، ويدفعه نحو استنتاجات كانت جاهزة [سابقة] قبل البدء في التماس المعنى، ولا غرابة أن يشتد الخصام والصراع بين أطراف الكلام.. إما لجهل بثقافة النص أو بغية استثمار مقاصده لفائدة المعتقد، فتغدو الحوارية عقما والمناقشة عنفا.

رابعا: اتصالية المعنى.. الخبرة ووعي الترجمة [مستويات الفهم.. وألعاب اللغة]:

يمثل الاتصال [التواصل] استجابة لطلب المتلقي قصد ترشيد إرادة العلاقة وتمكينها بين أطراف الحوارية، بينما يشكل المعنى إجابة لمجموع الكلمات المستخدمة لإيصال الفكرة.. وحين ننتبه بمسؤولية أكبر إلى أهمية المناقشة مقارنة بالمعنى.. يدعونا ذلك إلى اعتماد [إيجاد] المناهج والأساليب اللسانية التي تضمن جودة المعنى لصالح الاتصالية، ولأنساق الإجابات عن أسئلة موغلة في السردية، تتطلب في كل حين مزيدا من المعاني والكلام

1 - سابير إدوارد، اللغة "مقدمة في دراسة الكلام"، مرجع سابق، ج2، ص56-57.

2 - نفسه، ج2، ص125.

والخطابات.. بل نسعى إلى توظيف التأويل والترجمة للفكرة الواضحة، أكثر من توضيح للفكرة لأن الكلام عن الكلام لا يحقق بالضرورة العملية التواصلية، بل يؤدي إلى استثمار القول لصالح الأفكار المشبعة بالاعتقادات والصراعات.. على حساب علاقة متكلم/مستمع.. التي تضمن أمن التفاهم والتعاون والمناقشة باستخدام [الرموز، الإشارات، الرسومات، والأشكال، والخطاطات، والنمذجات. .] بدل الكلمات للحد من عنف الاعتقاد.. وتوفير فرص من التعاون.. واقتصاديات المعنى.

يذكر جون سيرل John Searle (1932-) أن الغرض من الإجابة عن الاستفهامية هو التواصل والتفاعل مع الآخر [المستمع].. وفي الوقت نفسه «.. لا يجب خلط قصد المتكلم المحمل بالمعنى والفائدة في الكلمات بقصد توصيل ذلك المعنى للمستمتع. في العادة تتمثل نقطة التكلم بأسرها في الاتصال بالمستمع، بيد أن قصد الاتصال لا يتماهى بقصد المعنى – أي القصد الذي يجب أن ينطوي فيه المنطوق على شروط الصدق وشروط إشباع أخرى»[1]، ويضع جون سيرل مجموعة من الاستجابات [الواجبات] حتى تتأكد الإحالات [الضمانات].. قصد الحد من احتمالية الصراع، وإفادة تقليص الحمولة اللغوية في انسجام الفكرة مع منطق الكلام فـ«1- يجب أن أنطق الجملة [...] نطقا صحيحا بمعناها التقليدي 2 – يجب أن ينطوي منطوقي على شروط إشباع، وهي تحديدا، شرط الصدق.. 3- يجب أن يتعرف المستمع على القصد 2 عن طريق تعرفه على القصد 1، ومعرفته بأعراف اللغة (...)»[2]، إذ أن توصيل المعنى يعتمد على: معرفة اللغة، ومعرفة القصد من توليد الجملة في اللغة، والوعي باللغة.. ليصبح المعنى = معرفة [اللغة + القصد + الوعي].. وضيف سيرل بأن القصد يختلف عن الحكم بخصوص المعنى لأن «.. التحليل مستقل ولا علاقة له بكوني أنقل الحقيقة أو أكذب، أي بكوني مخلصا أو مرائيا. يل إنني سأفلح في إصدار هذا الحكم. ..» [3]، ليظهر مستوى آخر يرتبط بالحقيقة في المعنى.

---

1 - سيرل جون، العقل واللغة والمجتمع "الفلسفة في العالم الواقعي"، تر: الغانمي سعيد، الدار العربية للعلوم-ناشرون، بيروت، لبنان، منشورات اختلاف، الجزائر العاصمة، الجزائر، ط1، 2006، ص211.

2 - نفسه، ص213.

3 - نفسه، ص214.

يقارب فتجنشتين لودفيج Ludwig Wittgenstein (1889-1951) بين اللغة والفهم في عقلانية تحليلية المنعطف، ومنطقية البدء، وفق استنتاجية تحيل المعنى إلى عمليات من الحيرة والانتباه، والمعرفة المختبئة تحت طائل الكلمات الملتحمة والألعاب المتشذية، فيصرح: «.. إننا نحاول الوقوف على العملية العقلية الخاصة بالفهم، الذي يبدو خبيئا وراء تلك الظواهر المصاحبة الأكثر خشونة والأكثر –بالتالي- ظهورا. غير أننا لا ننجح في ذلك. أو بالأحرى، لا نبلغ مستوى المحاولة الحقيقية، إذ حتى لو فرضنا أنني وجدت شيئا كان قد حدث في جميع تلك الحالات الخاصة بالفهم، فلماذا ينبغي أن يكون هذا هو الفهم؟ وكيف أمكن أن تكون عملية الفهم خبيئة، حينما قلت "إنني أفهم الآن" لأنني قد فهمت ؟! وإذا قلت إنها خبيئة، فكيف أعرف إذن ما ينبغي علي أن أبحث عنه؟ إنني في حيرة من أمري»[1]، هي دعوة للانتقال من كوجيتو المعرفة "أنا أعرف إذا أنا موجود" إلى كوجيتو الفهم "أنا أفهم إذا أنا موجود".. إلى كوجيتو الاعتراف "أنا أعترف إذا أنت موجود.. إذا (أنا) موجود أيضا"، فبين العقل والنحو تتجلى مستويات متنوعة من الكلام والمعنى والفهم.. وبين أن أقول "إني أفهم".. وبين "أعتقد أني أفهم".. وبين "أنا أعرف أني أفهم".. فكل إضافة في الكلام تعد تغييرا في المعنى ومستوى آخر للفهم.. بين منظومة المعرفة واللغة والتأويل.. فمرحلة الفهم تبدأ من حصول المعنى لدى المتلقي.

تمد الكتابة(L'ecriture) والتحرير(Rédaction) المعنى بـ "الإطار" (Cadre) و"الأثر" (Trace، Effet، Piste، Marque) في تجليات التأثير، والأثر، العلامة، و«...يبقى للكلمة المكتوبة سلطتها، التي نبحث فيها، فوق كل شيء، عن المعنى، فالسؤال الأول الذي يسأله التلميذ دائما، عندما يسلم إليه كتابا صعبا ليقرأه هو: "ماذا يعني هذا الكتاب؟" حيث يفترض هذا السؤال، أن هنالك معنى أو مضمون واضح وموضوعي لابد أن يستخرج من النص، بشرط امتلاك العدة الصحيحة والذكاء الكافي للقيام بذلك. ومع ذلك، لو توقفت وفكرت مليا بما نعنيه من كلمة "معنى"، تجد أنه ليس واضحا»[2]، فلا يمكننا أن نتفق حول معنى ما.. حتى وإن شرعنا في وضع كل الترتيبات والإجراءات لبلوغ معنى موحد.. وقد

1 - فتجنشتين لودفيج، بحوث فلسفية، ترجمة وتعليق: عزمي إسلام (د)، مراجعة وتقديم: مكاوي عبد الغفار (د)، مطبوعات جامعة الكويت، الكويت، دط، 1990، ص124.

2 - دايفيد جاسبر، مقدمة في الهرمينوطيقا، مرجع سابق، ص25-26.

نتفق في الفكرة [الإطار] بقدر ما نختلف في الصياغة [التركيبة].. كما تتنوع مستويات الكتابة بين التقيد بالأجناس أو تجاوز القالب الأدبي والتخصصي.. حتى أنه يصعب التفريق في النص الواحد بين التراكيب باعتبار أن الكتابة أصبحت نصا مفتوحا ويسع كل القراءات.. إضافة إلى السياسة اللغوية المنتهجة في الكتابة ومستويات الأدباء والكتاب.. مما يجعل القراءة بكل ما تحمله من أدوات ومناهج وتقنيات بعيدة عن روح النص وأدبياته وأساليبه.. ولنا أن نتساءل بنقدية متعالية: هل الكلام [الخطاب] الذي وضعه صاحبه [الكاتب] كان مشروعا معدا قبليا للتأويل والترجمة؟ وهل كل كلام يصلح أو يصح لتصدير المعنى؟ وهل لنا أن نتحدث عن خطاب بلا تأويل.. ونص بلا ترجمة؟

يتساءل جاك دريدا Jacques Derrida (1930-2004) بخصوص علاقة إيتيقا المناقشة بـ"حدود المعنى" من خلال تعقيبه على محاضرات هانس غادامير حول "استحضار الإرادة الحسنة والإقناع الكامل بالرغبة في الاتفاق" قائلا: «.. كيف لا نسعى إلى قبول هذا الوضوح المتين لهذه البديهة؟ فهو ليس مجرد "إيتيكا" éthique، إنه مبدأ الإتيكا لكل مجتمع ناطق كما أنه يحدد ويضبط ظواهر عدم الانسجام وسوء التفاهم، فهو يهب الإرادة الحسنة إلى "الكرامة" بالمعنى الكانطي أي أن ما يسكن الكائن الأخلاقي هو وراء كل تقييم تجاري (مساومة) وكل ثمن يفاوض وكل مقتضى افتراضي فهو غير مشروط ووراء كل تقييم عموما وكل قيمة إذا كانت القيمة تفترض المقياس والمقارنة»[1]. .. ويرد عليه هانس غادامير حول مفهوم "الإرادة الحسنة" بما يتفق مع فلسفة أفلاطون في هذا الشأن معقبا:«.. يعني أننا لا نشغل بالنا في الكشف عن أوهان الآخر قصد تبيان أننا على حق إطلاقا، وإنما نبحث بالأحرى عن تدعيم وجهة نظر الآخر بقدر الإمكان بحيث أن خطابه يصبح منيرا وواضحا نوعا ما.. يبدو لي أن هذا الموقف هام وأساسي لكل فهم. فهو مجرد إثبات (أو شهادة) لا علاقة له بالنداء وبالأخلاق: فالكائنات عديمة الأخلاق تسعى أيضا إلى التفاهم»[2]، هذا التفاهم الذي يتأسس على معابر [قنوات] التواصل العادية والمتطورة، يستدعي المحافظة على أنثروبولوجيا اللسان وبيئته التي يستمد منها ألفاظه ودلالاته، فعند رفض التعامل [الاستعمال] مع مجموعة من التسميات فلا يعني ذلك أننا سنتنازل

1 - نقلا عن: غادامير هانس غيورغ، فلسفة التأويل "الأصول، المبادئ، الأهداف"، مرجع سابق، ص25.
2 - نفسه، ص25.

عن معانيها، بل تنتقل روح [معنى] الكلام إلى أبدان [ألفاظ] جديدة وأشكال أخرى مع الإبقاء على المعنى في بلاغته وإبلاغيته، فمن«.. عوارض طبيعية التطور الذي يجعلنا نتخلى عن مجموعات من الكلمات أننا لا نرفض المعاني في ذاتها بل لا نستحسن أن تكون السمات الشكلية من بدايتها، إذ أن المفردات في الانجليزية غنية بالمترادفات والمجموعات من الكلمات المتجاورة تماما من حيث محتواها المعنوي»[1]، هذا التطور الذي يلاحق اللغة في كل اكتساب أو استعمال.. يقتضي التجديد في الألفاظ.. مقابل الحفاظ على مقاصد الكلام.. وأدبيات التواصل.. فالمعنى في كل الحالات الألسنية متوافر.. وعلى المشتغل بالتأويل أو بالترجمة أن يحسن انتقاء ما يلزمه من منطوقات وملفوظات تتفق مع المعنى الذي يتوافق مع طبيعة الكلمات والتراكيب والنصوص، فحين نستخدم ألفاظا غير مناسبة.. يصبح المعنى عرضة للفشل [الخلل] والفهم فرصة للخطر [الحظر]، لأن «..المصدر الرئيسي لفشلنا في الفهم، هو أننا لا نتطلب الرؤية الواضحة والشاملة لاستخدام ألفاظنا، فقواعدنا النحوية ينقصها هذا النوع من الوضوح، والتمثيل الواضح يؤدي إلى ذلك الفهم الذي يقوم على "إدراك العلاقات" أو الروابط، ومن ثم تتبدى أهمية إيجاد واختراع الحالات المتوسطة»[2]، كما يرتبط هذا الفشل بالاعتقاد الذي يدفع بالمعنى نحو أبعاد غير متاحة في الكلمات.. بل تخدم إرادة المؤول وغرض المترجم من تنميط وتطويع [توريط] المصادر، في غياب التعامل الجدي [الحيادي].. وبسبب النظرة [الأحادية] التي يحملها قبل خوض القراءة وممارسة التأويل والترجمة.

يتجلى التهافت في فلسفة التفاوت.. عندما تكون لغة النص موغلة في التعالي والتغاضي.. مما يقتضي جهدا مضاعفا وعملا إضافيا في فك شفرات المعنى.. وحتى لا نعيب التأويل المفرط في اعتقادات سابقة، ولا ننعت الترجمة بالإخفاق حين تتخذ من الكلمات بناءات متقاطعة ومنفصلة.. علينا أن ننتصر لتأويلية خالصة [مخلصة]، وترجمانية وافية [وفية]، إذ «.. ليس ثمة كلمة قابلة للترجمة، ولسنا بحاجة إلى ترجمة كلمات، نحن نترجم الجمل والنصوص، ولا يهمنا إن كانت دلالات الألفاظ عادة ما لا تغطي بدقة دلالات ألفاظ لغات أخرى، على كل حال، النص لا يحوي سوى المقاصد، ويكفي كي

1 - سابير إدوارد، اللغة "مقدمة في دراسة الكلام"، مرجع سابق، ج2، ص67.

2 - فتجنشتين لودفيج، بحوث فلسفية، مرجع سابق، ص109.

نجعلها ملائمة أن نحدد السياق المناسب، بذلك تكون النصوص مبدئيا قابلة للترجمة، فهل تكذب الترجمات؟ علينا الالتزام بهذه القاعدة: الكلمات المترجمة تكذب دائما، أما النصوص المترجمة فإنها لا تكذب إلا إذا كانت رديئة الترجمة»[1]، ليؤول المعنى إلى دلالات أخرى تحمل الكثير من الريبة والظن والالتباس والتداخل والتجاوز.. لأنها تشكل المفهوم في عمومه مثلما تحافظ على الفروقات والمفارقات التي ترافق المعنى كـ: المقصد (Intention)، والإرادة (Volonté)، والرغبة (Désir)، والمحاولة (Tentative)، والاتجاه (Orientation)، (Direction)، والنزعة (tendance)، والهدف (But)، والغاية (Objectif)، والميل (Affection)، والغرض (Affaire)، والقابلية (Aptitude)، والوصول (Destination)، والاستعداد (Disposion)، في إنتاج السياق (Contexte) أو تحريره، فكل هذه الكلمات تحمل مدلول المعنى من قريب أو بعيد، غير أنها تبين المقاصد من المعاني القائمة على استحضار الاعتقاد أثناء البحث عن المعنى الشريد.

خامسا: أمن المعنى.. [إيكولوجيا التأويل (الحياد) أولا.. التحليل (المناقشة) ثانيا]:

تشكل "الإيكولوجيا" نظامية آمنة للحياد.. لتبيين منظومات الاعتقاد.. بعيدا عن ميتافيزيقا الخلاص التي ترافق الخوف والخفوت.. وذلك لما تتيحه اللغة من إمكانات غير محدودة لإدراك المعنى والتعبير عنه، إذ توجد «.. سمات كثيرة تمتاز بها اللغة، مثل وجود أفعال الكينونة الدالة على الزمن، والقدرة التوليدية اللانهائية في النحو (...) أناقش الآن خاصية محددة جدا للغة، أسميها بـ "الترميز". إذ يمتلك البشر القدرة على استعمال شيء معين يصورون به، أو يمثلون، أو يعبرون، أو يرمزون إلى شيء آخر. وهذه الخاصية الترميزية الأساسية للغة هي ما اعتبره المسلمة الجوهرية للوقائع المؤسساتية»[2].. وتحيل الإيكولوجيا (ecology, écologie) إلى العلم الذي يقوم بدراسة وجود الإنسان وبيئته.. إلى جانب دراسة العلاقات بين الأحياء والوسط الطبيعي.. وتتيح الممارسة الإتيمولوجية[*] تجذير لفظة "الإيكولوجيا" إلى شقين:(إيكو=oikos=éco) ويراد بها البيت أو البيئة، و(لوجيا=logos=logie) وتعني العقل والعلم والخطاب والكلام، لنحصل عند جمع

1 - هرالد فاينرش، اللغة والكذب، ترجمة وتقديم وتعليق: عبد الرزاق بنور (أ.د)، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2015، ص71.

2 - سيرل جون، العقل واللغة والمجتمع "الفلسفة في العالم الواقعي"، مرجع سابق، ص225.

* - الايتيمولوجيا [التأثيل=التجذير] l'étymologie:علم الاشتقاق.. علم تاريخ الألفاظ .. أصل الأشياء والكلمات.

اللفظتين على عبارة "علم البيئة" كما تعني "كلام [حول] البيت".. وفلسفة البيئة (إيكولوجية) بالمعنى الأوسع «.. ترى البشرية بوصفها واحدة مع الطبيعة، وكجزء لا يتجزأ من سيرورة التطور التي تمضي بالكون قدما من المادة الجامعة إلى الحياة، إلى الوعي، وفي المآل. .. إلى الإلهي»[1]، ويراد بـ "إيكولوجيا المعنى" (écologie du sens) تقديم تحليل [نقاش] للنص وليس أحكاما [أوامر].. قصد الفهم وبناء المفاهيم.. فالكلام ليس حكرا على المتكلم ولا حتى المتلقي.. إذ توجد بيئة كلامية.. تجمع بين اللغة والمعنى والفهم. بعيدا عن اعتقادات: الحظر، والمنع، والتقديس، والحرمة.

تؤلف المعرفة بحضرة الاعتراف ابستيمية متعالية.. لبناء نظام إيكولوجي يليق بسلامة معنى.. ومرجعية لكل سلوك لغوي.. فـ«.. المشترك بين الناس هو النسق أو النظام المرجعي الذي نفسر بواسطته لغة غير معروفة»[2]، فما يفارقه الكلام.. يجمعه السلوك [الحياة].. وهي دعوة إلى ايكولوجيا اللغة [إيتيقا المناقشة] القائمة على تتبع السلوك العام.. وفق البيئة الكلامية التي تعد مرجعا معرفيا لتحقق المعنى بما يتوافق مع مقاصد النص.. وطبائع الناس.. فشتان بين أن نعرف [المعرفة] وبين أن نعترف [الاعتراف].. بين أن نفهم ونفسر ونؤول ونشرح.. فهي تجتمع في مستويات من الوعي [التفكير].. لكنها تختلف في توافر درجات الأمن [الخطاب].. فحين يتحول الكلام إلى عادة واللغة إلى قاعدة.. يصبح المعنى بلا معنى.. لأنه يستفرغ إرادته في منظومة الحكي العام.. ودائرة القهر والإكراه.. كما أن إيكولوجيا المعنى ليست دعوة إلى إتباع عادة ما أو قاعدة ما.. إنما هي مناسبة للانفتاح على كل ما هو ممكن آمن [مقبول].. فـ«التفسيرات بذاتها لا تحدد المعنى»[3]، ولا يقتصر المعنى على إيصال الفكرة [التخاطب] ونقل النص من اعتقاد اللغة [العلامة].. إلى اعتقاد الدلالة [المفهوم].. إنما تدعونا الأركيولوجيا إلى توافر مستويات من الإيتيقا والأخلاقيات في نقل المعرفة وتغيير السلوكات.. فما فائدة المعنى إذا كان الإنسانية.. ويمس اعتقادات الناس ويضر بمقدساتهم.. فأولى باللغة أن تحترم أمن الإنسان حتى من نفسه.. حيث يثور ضد باسم العقيدة أو تحت طائل المعنى.. إضافة إلى أفعال وأصوات وكلمات لا نستطيع

1 - مصطفى حسيبة (د)، المعجم الفلسفي، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، ط1، 2009، ص438-439.

2 - فتجنشتين لودفيج، بحوث فلسفية، مرجع سابق، ص152.

3 - نفسه، ص150.

تحويلها أو ترجمتها أو تفسيرها.. ومع ذلك لا يمكن لنا أن نضمن المعنى الذي يخدم الاعتقاد أو ينقله بدقة.. وهنا تحضر المحاكاة في الإجراء وتنعدم في الفهم، فيهوى القصد في بؤس الترجمة وبأس التأويل، ولتحقيق هذا الأمن لصالح المعنى نقترح مجموعة من الاستراتيجيات الكلامية تتمثل في النقاط الآتية:

- تخليص المعنى من الحمولات الإيديولوجية وعدم إخضاع النص لها، مع مراعاة الحمولة الدينية والعلمية والفلسفية لكل نص [متن].

- اعتماد ضابط الاقتصاد بدل التلخيص والاختصار.. وكذا معيار الاحتمال بدل الإلمام.. في عمليات صوغ المعنى.

- تنشيط القراءات المختلفة والمتنوعة للنص الواحد دون إقصاء [انتقاص=إلغاء] أو إعلاء ولا استعلاء [مغالبة=مغالاة].

- العمل على إعداد المعنى جماعيا [المجالس، اللجان، الفرق..]، حتى نحصل على أكبر قدر من الفهم والاستيعاب.. ومقاربات القصد.

- ربط النص بالسياقات التي أنتج فيها (وفقها) = [الزمان، المكان، البيئة، اللغة، التاريخ، الظروف، المقاصد..].

- إعطاء الأولوية للمتلقي [العميل، الفرد، الإنسان. .] من خلال تحديد وتعيين الفضاء اللغوي والمعرفي اللذان يشكلان المعنى.

- وضع إمكانات للتنوع(*) في مقابل الاختلاف.. داخل المعنى دون احتكار لمذهبية أو ذهنية.

- تجاوز سلطة الخطاب لصالح مرونة العمليات [التطبيقات].

- ضرورة التفريق بين مناهج الكلام وبين أصول التأويل وكذا مستويات الترجمة عند التعامل مع أشكال المعنى وتطبيقات اللغة.

- استحضار التخصص مع الإشادة به بدءا وتعيين المسار قبل الخوض في التأويل والترجمة وصناعة المعنى.. باقتراح أصول عامة [مقاييس] يتفق عليها كل الأطراف.. دون

---

*نستبدل ملفوظ "الاختلاف"(différence) بمصطلح "الاختلاج"(convulsion) أواصطلاحية التنوع"(variété)، (diversité)، حتى يتشكل الوعي بضرورة الانتقال من المعرفة إلى الاعتراف، لكن ما نحتاجه أكثر مستويات مغايرة من المناقشة من المثاقفة، ربما نصل ذات منعطف إلى فلسفة تفهم أكثر .. ولا تقدس المفاهيم .. هي دعوة لاحترام الهامش .. والتفكير خارج الإطار.

تجاوز لخصوصية [اتجاه] ما، ليصبح المعنى اشتراكا بين الجميع.. على أن يحافظ على الأقليات الكلامية.. التي تنتسب إليها كل فرقة أو مذهب في دائرته الخاصة.

- الاستعانة بالخبرة [التجربة] واتساع [انفتاح] المعارف.. والانتقال من تجربة المعرفة [سلطة] إلى تجربة الحياة [السلطان].

- اقتضاء [افتراض] تغير المعنى بسبب اختلاف الممارسة النصية.. دون انزلاق [فرض] لاعتقاد سابق أو مرجعية مستوردة.. فلكل منظومة كلامية تعبيرات دلائلية وتعابير تداولية.. تستلزم تجديد المنطلقات ومراعاة المنعطفات.. بعيدا عن أحادية العاطفة وكذا سلطة الذات.

- ضبط الأخلاقيات في الممارسات اللغوية بما يشجع عمليات الحوار والنقاش [معابر إيتيقية].. حتى لا تتحول الرسالة الكلامية إلى طوبيقا ملغمة.. والمعنى إلى سفسطة فارغة.

- تقديم الأمن اللغوي في تحصيل المعنى المعرفي.. إذ لا يعقل أن نكتسب معلومة ما تحت ضغوطات العنف والغضب والخوف.. وهي دعوة إلى انتقاء الملفوظات.. لفائدة المدلولات.

تفيد هذه الاستراتيجيات المرتبطة بأمن اللغة في الانتقال من فتنة المعنى إلى متعة القراءة.. بالارتقاء من فوضى الكلام إلى إيكولوجيا مناسبة لتطبيقات التأويلية وإجراءات الترجمة.. ونحتاج لتحقيق هذا السعي إلى جهد كبير في تحصيل المعنى الآمن.. إذ أن تحويل [تحرير] معنى كلمة واحدة عندما نخطئ في استعمالها أو تأويلها ضمن خطاب (سياق) ما، يقتضي العود إلى مجموعات من العلاقات والروابط اللغوية والدلائل العقلية والفتوحات.. حتى نخرج من الفهم الخاطئ أو غير المقصود نحو معنى جديد آمن لاستعادة [تسيير] الحوارية، وقيادة [تدبير] الممارسة النصية.

استنتاج:

تقوم نظرية "ايكولوجيا المعنى" على نقل اللغة المستعملة في قراءات النصوص من تعليم التأويل [التهويل..التحريف] (Herméneutiques)/ (Hermétisme) وتدريس الترجمة [الجريمة..الخيانة] (Traduction)/(Trahison) في المعطى الحرفي إلى التأويل والترجمة داخل التعليمية في المسعى الاحترافي.. فالهرمنيوطيقا ليست فعلا بريئا.. بل هي خطيرة وعرضة للأخطاء والتجاوزات والمفارقات، وانتهاك المعنى.. والتطاول على مقاصد النص..

لما يحيطها من الخلاف والمخالفة (Infraction) والخرق [الاعتداء] (Violation)، والعنف (violence)، وسرقة المبنى (Vol)، واغتصاب المعنى (Viol) وخصي الفهم (Castration) ضعفا وشذوذا وحشوا ومغالطة.. والترجمة لا تنحصر في النص باعتباره سياقا لغويا، أو خطابا دلائليا، أو كلاما عن الكلام.. بل تتعداه إلى كل إحالة أو شاردة أو إنشادة وواردة، فهي تسهم في صناعة المعنى ولا تقف عن تخريج المفهوم.. إذ يصبح الهامش فيها جديرا بكل معاينة ومتابعة.. مما يقتضي استقراء الأجزاء في شقها اللفظي والعلاماتي.. واستنتاج المعنى العام في بعده الكلي والشمولي والمطلق.. في اختزالية للزمن واقتصاد للجهد.. وحكامة الدلالات واحتمالية الترميزات.. فبين دقيق المعنى وجليله وجميله تغدو القراءة كتابة متعالية.. تبشر بميلاد مستويات من المكاشفة والعرفانية.. لذا علينا أن نتعفف وبكثير من السيمياء عن دلالة لا تفيد إنتاج معنى بالمفهوم المشترك.. فعند الحقيقة التي تحملها اللغة.. يكفي أننا نتوصل على حقيقة ما.. فكل ما نحوزه من منطق ولغة وفلسفة ونحو لا يكفي لرفع الإحالات.. ودفع الاعتقادات.. وأن نقرأ النصوص بمثل ما نكتبه وفق بيئتها وتخصصها.. ألا نغامر بنص خارج أنطولوجيته.. ونسقه، وجنسه.. أن نعترف بالعجز.. وأن نشعر بالحيرة وقلة الحيلة.. أن نقف بكل إيتيقا وأمن وأمانة عند كل منظومة كلامية.. حتى لا نستيقظ أمامها بخرافة وسذاجة وخدعة وخيبة.. ووهم وزيف.. وتضليل وعنف.

تتولى الترجمة الآلية [الافتراضية] نقل المعنى من نص أصلي إلى نص هجين، مثل الترجمة المباشرة [الإعلامية] التي ترافق خطابات السياسيين والمحللين والخبراء من خلال الحصص الإخبارية والتلفازية.. والترجمة اليومية [الاستهلاكية] التي تجوب السوق ومحلات البقالة ومطاعم الأكل الخفيف.. أما الترجمة الدقيقة [الرسمية] التي تتعلق بالعقود والدراسات والأبحاث.. والتي يشترط فيها الالتزام بأقصى حدود مناهج المعنى.. فتحولها إلى هياكل من الإجراءات النحوية والتقنيات الجاهزة داخل إطار الخدمة الأكاديمية، بلا روح ولا إستيطيقا.. فبين المنهج الانطباعي وصرامة النقد الابستمولوجي تولد الترجمة من رحم المعنى الآمن، فالبنيوية.. لا تحد من الاختلاف [الخلاف].. والتأويل تفكير في [اللامفكر فيه].. في الغائب عن النص.. وحين نخضع النص للترجمة والتأويل معا يصبح القبض على المعنى نوعا من الخيال أو الاحتيال.. كل هذه الحالات لن تجعل من

النتيجة أمرا إيكولوجيا لصالح الدلالة والتداولية.. لأن الاعتقاد يتربص بكل عملية تلحق القراءة.. كما حضرت سابقا ذات كتابة.. فبين إيديولوجيا الناص.. وسياسة النص.. واعتقاد المتلقي.. تؤول الترجمة إلى تأويلات ميتافيزيقية [وهمية] في قفزات دونكيشوتينة لإدراك المعنى.. بينما تحيل إيكولوجيا المعنى إلى الإصغاء (Entendre) (المتابعة) [المباشر، الإدراك، التفاهم، النقاش Prêter l'esprit] وصولا إلى الإنصات (Entendu) لتحقيق الاتفاق.. بدل السماع (Ecouter) (الإصغاء) [الخفي، التلصص، التصنت، المراقبة Prêter l'oreille].. الذي يقف عند حدود الصوت. .. ولا يتعداه إلى معنى « وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون »[1]، فعند تضافر القراءة والاستماع والإنصات.. لا قصد حسم موقف أو بلوغ حقيقة.. إنما.. لتجاوز التهافت والتفاوت.. فالاستماع بالعقل يكون إصغاء وبالأذن يكون إنصاتا.. وحتى يستجيب المعنى لإرادة اللغة في تعقيدها وتفاوتها.. بعيدا عن عنف الاعتقاد في ميتاويته وفكراويته.. إذ لا وجود للترجمة بل هو تأويل للنص الأصلي.. ونقل الصياغة من لغة إلى أخرى.. هو انتقال آخر للمعنى [مخالفة] وليس مرادفة.. من المقاربة إلى المفارقة إلى المقارنة.. هي نسق ترجماني (حالة من الوعي المختلف).. وحين يصاحبها الاعتقاد تصبح ضربا من العقل المتردي [المتخلف].

1 - القرآن الكريم، سورة الأعراف، الآية:204.